الاغتراب في قصيدة
"لا تعذليه" لابن زريق البغدادي
دراسة أدبية موضوعية

ياسر بن عبدالله الطريقي

الألوكة
www.alukah.net

الاغتراب في قصيدة "لا تعذليه"

لابن زريق البغدادي

دراسة أدبية موضوعية

إعداد

ياسر بن عبد الله الطريقي

باحث في اللغة العربية وآدابها

ملخص البحث

يهدف البحث إلى: دراسة قصيدة ابن زريق العينية الفراقية دراسة أدبية موضوعية يتضح من خلالها مفهوم الاغتراب، وأثره على الحياة الزوجية، وأبرز أسبابه.

وخلص البحث إلى عدة نتائج أبرزها:

1-جمال القصيدة وإشادة الأدباء بها.

2- القصيدة مضمونها وجداني، رسم فيها شاعرها صورة المغترب عن زوجته، وأثر ذلك عليه وعلى محبوبته.

3- الاغتراب في الاصطلاح يكون حقيقياً وهو البعد عن الوطن جسديا، ومعنوياً من خلال الشعور بالعزلة اجتماعيا أو نفسيا أو دينيا.

4- يأتي طلب الرزق الباعث الأكثر للاغتراب.

5- البعد عن الزوجة له آثاره السلبية على النفس والمجتمع.

6- في القصيدة رسالة إلى زوجة المغترب، بأن تراعي حال زوجها، وأنه مع اضطراره للغربة لا ينفعه ذلك اللوم، ولا يزيدهما إلا حسرة.

7- الزوجة ملكٌ ونعمة يمنحا الله للرجل، ويجب عليها المحافظة عليها.

8- الاغتراب لا يسوغ تضييع العهد، وخيانة العشرة بين الزوجين، بل هو مع أسبابه المشروعة داعٍ للوفاء؛ فالرجل إنما يغترب لينفق على أهله ومن تجب عليه نفقته.

مقدمـة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على نبينا محمد، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد:

فإن دراسة النصوص الأدبية، دراسة موضوعية، وبيان معانيها ومقاصدها، والوقوف على كوامنها، وصورها، وتجلية مفاهيمها تُثري الذائقة الأدبية، ويُجنى بها ثمرة دراسة علم الأدب؛ وكلما كان النص عريقاً في أسلوبه، عميقا في عبارته، غنياً في تراكيبه وألفاظه، ذا وحدة موضوعية مترابطة، كان أدعى لدراسته دراسة موضوعية، وكان أكثر فائدة ونفعاً.

ومن القصائد البديعة الوجدانية التي أشاد بها الأدباء، والعلماء عينية ابن زريق البغدادي وهي قصيدة يتيمة له في الشكوى من البعد عن زوجته والاغتراب عنها بسبب طلب الرزق، وظهر فيها صدق الشاعر في حبه، وقدرته البيانية في شرح أسباب بعده عن حبيبته، وما لاقاه من متاعب ومصاعب وحرمان، والتي يقول في مطلعها:

لا تَعْذُليـــهِ، فـــإنّ العَـــذلَ يولِعُـــهُ قـد قلـتِ حقّـاً، ولكـن لـيس يسـمعُهُ

وسأتناول هذه القصيدة –بإذن الله تعالى– في هذا البحث المختصر بالدراسة الموضوعية من خلال دراسة موضوع الاغتراب في القصيدة، مع التعريف بقائلها ونصها، ومكانتها، ومضمونها، والله الموفق والمعين.

أهمية الموضوع وأسباب اختياره:

تكمن أهمية الموضوع وأسباب اختياره في النقاط التالية:

1- مكانة القصيدة في الأدب، ومنزلتها التي تحتاج إلى مزيد من تسليط الأضواء.

2- روعة مضامين القصيدة، وسموها.

3- واحدية القصيدة؛ حيث عده بعضهم في شعراء الواحدة، وهذا مع جمالها يستدعي دراستها من جوانبها الأدبية المتعددة، والدراسة الموضوعية أحد أهم تلك الجوانب.

أهداف الموضوع:

1- التعريف بالشاعر، وقصيدته العينية.

2- بيان مفهوم الاغتراب.

3- إبراز أثر الاغتراب على الحياة الزوجية.

4- بيان أحد أسباب الاغتراب وهو طلب الرزق.

خطة البحث:

يتكون البحث من مقدمة، وتمهيد، ومبحثين، وخاتمة، وفهارس.

المقدمة، وتضمنت أهمية البحث، وأسباب اختياره، وأهداف البحث، وخطته.

التمهيد، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: التعريف بالشاعر.

المطلب الثاني: مكانة القصيدة ونصها.

المطلب الثالث: مفهوم الاغتراب.

المبحث الأول: الاغتراب والزوجة.

المبحث الثاني: الاغتراب والرزق.

الخاتمة

ثبت المصادر والمراجع.

فهرس الموضوعات.

*****

التمهيد

المطلب الأول: التعريف بالشاعر:

هو: علي بن زُريق، أبو الحسن الكاتب البغدادي، كما نص عليه بعض من ذكر قصيدته العينية[1]، وترجم الثعالبي (ت: 429هـ) في "يتيمة الدهر" شاعرا كنيته: أبو محمد ابن زريق الكوفي الكاتب يروي عنه بعض مقطوعاته بواسطتين، ومنها:

سَـافَرت أبغـي لبغـدادٍ وسـاكنها ... مـثلا فحاولـت شَـيْئا دونـه اليـاسُ

هَيْهَـات بَغْـدَادُ الـدُّنْيَا بأجمعهـا ... عِنْدِي وسكانُ بَغْدَادٍ هم النَّاسُ [2]

والذي يظهر أنهما واحد؛ كلاهما في القرن الرابع، ولم أقف على تحديد وفاته بالدقة، ولكن ذكر بعض الباحثين أن وفاته كانت عام (420هـ) [3]، أي في الخامس، وهو بعيد؛ لأن أبا إسحاق ابن القيرواني المتوفى عام (453هـ) أشار إلى ابن زريق وقصيدته في : "زهر الآداب وثمر الألباب" حين ذكر قول تميم بن المعز:

كـأنما الشـمس مـن أثوابـه بـرزت ... حُسـناً، أو البـدرُ مـن أزراره طلعـا

قال: "استعارة مأخوذة من قول الآخر ، وهو ابن زُريق :

أسـتودعُ الله في بغـدادَ لِي قمـراً ... بـالكَرْخ مـن فَلَـكِ الأزرار مطلَعـهُ"[4]

وهذا يدل على تقدم ابن زريق؛ لأن الأمير تميم بن المعز الفاطمي تؤرخ وفاته بعام: (374هـ) [5]، وظاهر سياق ابن القيرواني يدل على أن ابن زريق متقدم عليه.

وكان لابن زريق زوجة وهي ابنة عم له في بغداد، وتدل قصيدته على ابتعاده عنها بسبب طلب الرزق، وفي بعض المصادر أنه انتقل إلى الأندلس وتقرب إلى بعض أمرائها فلم

---

(1) انظر "طبقات الشافعية الكبرى" للسبكي (308/1)، و: "الوافي بالوفيات" للصفدي (76/21).

(2) "يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر" للثعالبي (442/2).

(3) انظر: "واحدة ابن زريق البغدادي دراسة في البناء الشكلي واللغة الشعرية" لمؤيد جاسم وآخرون، مجلة آل البيت العدد العاشر ص(274).

(4) "زهر الآداب وثمر الألباب" لأبي إسحاق القيرواني (817/3).

(5) انظر: "الوافي بالوفيات" للصفدي (254/10).

يعطه شيئا فتحسر لذلك، وأنشأ قصيدته العينية[1].

*****

(1) انظر: "مصارع العشاق" لجعفر بن أحمد السراج البغدادي (23/1).

المطلب الثاني: مكانة القصيدة ونصها.

لهذه القصيدة مكانة سامية عند الأدباء ومتذوقي الأدب من العلماء؛ وأثر عن ابن حزم الأندلسي أنه قال: " من تَخَتمَ بالعقيقِ، وقرأَ لأبي عمرو، وتفقه للشافعي، **وحفظ قصيدة ابن زريق**، فقد استكمل ظُرْفَهُ"[1].

قال السبكي: "قصيدة علي بن زريق الكاتب البغدادي غراء بديعة"[2].

ومما يدل على العناية بها ما ذكر عن بعضهم من معارضتها، كأبي العباس ابن الدبيثي، يقول في مطلعها[3]:

يـروم صـبرا وفـرطُ الوجـد يمنعـهُ سُـلْوَهُ ودواعـي الشـوق تردعـه

وكالسيد محمد بن زيد الصنعاني، ويقول في مطلعها[4]:

بـانوا فسـالت عـلى خديـه أدمُعُـهُ مورقُ الجفنِ مُغرى القلبِ موجَعُهُ

وممن ذكر أنه شرح عينية ابن زريق: علي بن مطاوع العزيزي الأزهري الشافعي(ت 1199هـ)، بكتاب أسماه: "إشارات التحقيق الفيضية إلى خبايا القصيدة الزرقية"[5].

وتسمى هذه القصيدة: "عينية ابن زريق"[6]؛ لرويها، و: "الفراقية - فراقية ابن

---

(1) انظر: "طبقات الشافعية الكبرى" لتاج الدين السبكي (308/1)، و: "ثمرات الأوراق في المحاضرات" لابن حجة الحموي -بهامش المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهي- (210/2)، و: "كنوز الذهب في تاريخ حلب" لسبط ابن العجمي (80/2)، وحكى ابن النجار -كما في المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، انتقاء ابن الدمياطي (144/21)- هذا المأثور عن ابن حزم لكنه جعله في قصيدة أخرى لابن زريق في نفس الغرض والمعنى، يقول فيها:

وما سرُّ قلبي مذ شطت بك النوى أنيسٌ لا كأسٌ ولا متصرفُ

وما ذقت طعم الماء إلا وجدته كأن ليس بالماء الذي كنت أعرف

ولم أشهد اللذات إلا تكلفا وأي سرور يقتضيه التكلفُ

(2) "طبقات الشافعية الكبرى" لتاج الدين السبكي (308/1).

(3) انظر: "الوافي بالوفيات" (175/6)، و(78/21).

(4) انظر: "البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع" للشوكاني (256/1).

(5) انظر: "إيضاح المكنون ذيل كشف الظنون" لمصطفى القسطنطيني الرومي (83/3)، و: "معجم المؤلفين" لعمر كحالة (479/2) ونسبه في (462/2) إلى علي بن أحمد الهلوي الحنفي المصري (1198هـ).

(6) بعده في " الوافي بالوفيات" (77/1) :

تأبى المطالب إلا أن تُجشمهُ للرزق كدحا وكم ممن يودعه

==

زريق"[1]؛ لموضوعها، و: "الزريقية" نسبة إلى قائلها –كما سبق في عنوان شرحها–، وتسمى أيضاً: "يتيمة ابن زريق"، و: واحدة ابن زريق"[2]، باعتبار أنها واحدة لم يذكر المؤرخون لناظمها غيرها، وهذا متعقب بما سبق من أن ابن زريق نسب له مقطوعات وقصيدة غيرها، إلا أن يقال ذلك باعتبار شهرتها.

نص القصيدة:

القصيدة من بحر البسيط[3]، وقد أشار إليها وذكرها جماعة كما سبق، ونسوق نصها من كتاب طبقات الشافعية؛ لأن السبكي أسندها في كتابه عن ناظمها، وأوردها كاملة، وهذا نصها[4]:

1. لَا تعذليه فَإِن العذلَ يولِعُهُ ... قد قلتِ حَقًّا وَلَكِن لَيْسَ يسمَعُهُ
2. جَاوَزت فِي لومه حدا يُضِرُّ بِهِ ... من حَيْثُ قدرتِ أَن اللومَ يَنْفَعُهُ
3. فاستعملي الرِّفْق فِي تأنيبه بَدَلا ... من عنفه فَهُوَ مُضنى الْقلبِ مُوجَعُهُ
4. قد كَانَ مُضطلعا بالبين يحملُهُ ... فضلعتْ بخطوبِ الْبَين أضلُعُهُ
5. يَكْفِيهِ من روعة التفنيد أَن لَهُ ... من النَّوَى كلَّ يَوْمٍ مَا يُرَوِّعُهُ
6. مَا آب من سفر إِلَّا وأزعجه ... رأي إِلَى سفر بالعزم يجمعه
7. كَأَنَّمَا هُوَ من حل ومرتحل ... مُوكل بفضاء الأَرْض يذرعه
8. إِذا الزِّمَاعُ أَرَاهُ فِي الرحيل غِنًى ... وَلَو إِلَى السِّنْدِ أضحى وَهُوَ يُزْمِعُهُ
9. تأبى المطامع إِلَّا أَن تُجَشِّمُهُ ... للرزق كَدًّا وَكم مِمَّن يودعه

==

وسيأتي.

(1) انظر: "مصارع العشاق" (23/1).

(2) انظر: " شعراء القصيدة الواحدة" بنعمان الكنعاني (ص: 94)

(3) "وطبيعة هذا البحر الإيقاعية تتفق مع الشجن والتذكر والحنين؛ لانبساط الحركات، وطواعيته للإنشاد؛ فهو يعطي التموج والانسيابية، والإيقاع الذي يعطي النفس حالة من حالات السمو والصفاء" انظر: "موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور" لـ د. صابر عبد الدايم.

(4) انظر: "طبقات الشافعية" (308/1).

10. وَمَا مجاهدةُ الْإِنْسَان واصلةٌ رزقا وَلَا دَعَةُ الْإِنْسَانِ تَقْطَعُهُ
11. وَالله قَسَّمَ بَين الْخلق رزقَهم لم يخلقِ اللَّهُ مخلوقا يُضَيِّعُه
12. لكِنهمْ ملئوا حرصا فلست ترى مسترزقا وَسوى الفاقات تقنعه
13. والحرص في الرزقِ والأرزاق قد قسمت بغي أَلا إِن بغي الْمَرْء يصرعه
14. والدهر يُعْطي الْفَتى مَا لَيْسَ يَطْلُبهُ يَوْمًا ويطعمه من حَيْثُ يمنعهُ
15. أستودع اللَّه فِي بَغْدَاد لي قمرا بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه
16. ودعتُه وبِودِّي أَن يودعُني صفوُ الْحَيَاةِ وَأَنِّي لَا أودعهُ
17. وَكم تَشَفَّعَ بِي أَن لَا أفارقه وللضرورات حَالٌ لَا تُشَفِّعُه
18. وَكم تشبث بِي يَوْم الرحيل ضحى وأدمعي مُسْتَهلَّاتٌ وأدمُعُه
19. لَا أكذب اللَّه ثوب الْعذر منخرق عني بفرقته لَكِن أرقعه
20. إِنِّي أوسع عُذْري فِي جِنَايَته بالبين عنه وقلبي لَا يوسعه
21. أُعْطِيْتُ ملكا فَلم أحسن سياسته وكل من لَا يسوسُ الْملكَ يُخْلَعُه
22. وَمن غَدا لابسا ثوب النَّعيم بِلَا شكر عَلَيْهِ فَعَنْهُ اللَّه يَنْزعهُ
23. اعتضت من وَجه خلي بعد فرقته كأسا تَجَرَّعَ مِنْهَا مَا أُجَرَّعُه
24. كم قَائِل لي ذقت الْبَين قلت لَهُ الذَّنب وَالله ذَنبي لست أرقعه[1]
25. إِنِّي لأقطع أيامي وأنفذها بحسرة مِنْهُ فِي قلبِي تقطعه
26. بِمن إِذا هجع النوام أَبَت لَهُ بلوعة مِنْهُ ليلى لست أهجعه
27. لَا يطمئن بجنبي مَضْجَعٌ وَكَذَا لَا يطمئن لَهُ مذ بنت مضجعه
28. مَا كنت أَحسب ريب الدَّهْر يفجعني بِهِ وَلَا أَن بِيَ الْأَيَّامُ تفجعه
29. حَتَّى جرى الْبَينُ فِيمَا بَيْننَا بيدٍ عسراءَ تمنعني حظي وتمنعه
30. بِاللَّه يَا منزل الْقصر الَّذِي درست آثاره وعفت مذ بنت أَرْبَعه

(1) في : "الوافي بالوفيات: " أدفعه"، وبعده:
ألا أقمتُ وكان الرشدُ أجمعه لو أنني يوم بان الرشد أتبعُهُ

31. فِي ذمَّة اللَّه من أَصبَحت منزله ... وجاد غيث عَلَى مغناك يمرعه
32. من عِنْده لي عهدٌ لَا يضيعه ... كَمَا لَهُ عهد صدق لَا أضيعه
33. وَمن يُصَدِّعُ قلبِي ذكرُه وَإِذا ... جرى عَلَى قلبه ذكري يُصَدِّعُه
34. لأصبرن لدهر لَا يمتعني ... بِهِ كَمَا أَنه بِي لَا يُمَتِّعُه
35. علما بِأَن اصْطِبَارِي معقب فرجا ... فأضيق الْأَمر إِن فَكرت أوسعه
36. عَسى اللَّيَالِي الَّتِي أضنت بفرقتنا ... جسماً ستجمعني يَوْمًا وتجمعه
37. وَإِن ينل[1] أحد منا منيته ... فَمَا الَّذِي فِي قَضَاء اللَّه يصنعه

*****

(1) في : "الوافي بالوفيات: " تغل".

المطلب الثالث: مفهوم الاغتراب.

كلمة: "غَرْب" أصل في اللغة له فيها إطلاقات متعددة، ومتجانسة المعنى[1]، ومن ذلك:

1- إطلاقه على آخر شيء وحدِّه ومنتهاه، ومنه: "غرْب السيف" أي حده، وقولهم: "استغرب الرجل" إذا بالغ في الضحك، فكأنه بلغ آخر حدِّ الضحك.

2- إطلاقه على المجهول الذي لا يعرف، كقولهم: " أتاه سهمٌ غرْبٌ" إذا لم يدر من رماه.

3- إطلاقه على البُعد، يقال: "غربت الدار" أي بعدت، و"الغربة" البعد عن الوطن، والذهاب والتعري عن الناس.

ويرى أبو عبيد أن هذا هو أصل الكلمة، وهو البُعد[2]، وهو كما قال فما من إطلاق إلا وتجده متصلا معناه بالبعد؛ فحد الشيء هو آخره البعيد، والمجهول الذي لا يعرف هو قادم من بعيد، ومن ذلك: "غربت الشمس" بعدت عن وجه الأرض، وبلغت آخر حدها ومنتهاها.

ومنه : إطلاق "الغريب" على الرجل البعيد عن وطنه، ويقولون: "هل من مُغَرِّبةٍ خبر" يريدون خبرا أتى ممن جاء من بعيد، ونقول: "أُغْرُب" أي: ابتعد، و"تغريب الزاني" نفيه عن بلده وموطنه.

والاغتراب في الاصطلاح يكون حقيقياً، ومعنوياً.

الاغتراب الحقيقي: هو البعد عن الوطن جسديا وهو ما يمثله كثير من القصائد الأدبية التي يبعثها الشوق والحنين إلى الأوطان، وصورها الشاعر القديم بالوقوف على الأطلال.

والاغتراب المعنوي: هو الشعور بالعزلة، والإحساس بالبعد عن المحيط الذي يعيشه

---

(1) انظر: "معجم مقاييس اللغة" لابن فارس، مادة (غرب) (421/4)، و: "لسان العرب" لابن منظور، مادة غرب (3224/5)، و: "تاج العروس" للزبيدي، مادة (غرب) (456/3).

(2) انظر: "غريب الحديث" لأبي عبيد القاسم بن سلام (279/3).

الشاعر اجتماعياً، أو نفسياً، أو دينياً[1]، ومن الأخير قوله ﷺ: "بَدَأَ الْإِسْلَامُ غَرِيبًا ، وَسَيَعُودُ كَمَا بَدَأَ غَرِيبًا ، فَطُوبَى لِلْغُرَبَاءِ"[2].

ومن أمثلة تعبير الشاعر عن هذين المعنيين ما سطره البارودي في لاميته التي يعبر فيها عن شوقه لماضيه، والتي بث في أثنائها هذا الشوق، وتلك الأمنية التي تكاد أن تكون أمنيته الوحيدة في منفاه كما في قوله:

لَمْ يَبْــقَ لِي أَرَبٌ فِي الــدَّهْرِ أَطْلُبُــهُ ... إلاَّ صــحابةُ حُــرٍّ صَــادِقِ الخَــالِ

ثم يصرح بذلك الشوق في قوله:

شَــوْقٌ وَنَــأْيٌ وتَــبْرِيحٌ وَمَعْتَبَــةٌ ... يَــا لَلْحَمِيَّــةِ مِــنْ غَــدْرِي وإِهْمَــالِي

ويشير الشاعر في قصيدته هذه إلى نوع آخر من الغربة التي يشكوها، وهي غربة المبدأ، والثبات على العهد، والصدق في الحب، فيقول:

لَكِنَّنِــي فِي زَمَــانٍ عِشْــتُ مُغْتَرِبــاً ... فِي أَهْلِــهِ حِــينَ قَلَّــتْ فيــهِ أَمْثَــالِي[3]

والاغتراب الحقيقي الذي تعرض له الشاعر ابن زريق هو الباعث الأساس إلى هذه القصيدة.

*****

(1) انظر: "ظاهرة الاغتراب في شعر مخضرمي الجاهلية والإسلام" لأ. آمال عبد المنعم الحراسيس (ص:22).

(2) الحديث أخرجه مسلم في صحيحيه عن أبي هريرة رضي الله عنه ح(145).

(3) انظر: "ديوان البارودي" (ص:445)."لامية البارودي في الغربة والحنين- دراسة بلاغية تحليلة" لـ ياسر عبد الله (ص:12).

المبحث الأول: الاغتراب والزوجة.

من أعظم ما يفقده المغترب عن بلده قُرب أهله وأحبابه، لا سيما الزوجة فهي أساس بيت الرجل، وهي سكنه الذي لا يستغني عنه، وهي حضن المودة والرحمة، وجعلها الله آية من آيته، يستقيم بها الكون، ويبقى الإنسان بها سامياً، منضبطاً في حياته، عامراً لها: {وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ }[1].

والبعد عن الزوجة له آثاره السلبية على النفس والمجتمع؛ لأن المغترب يفقد هذا السكن، والدفء المستقيم مع سنن الله الكونية، ويبقى الفراق غصة في حلق المغترب، وكمدا في قلب زوجته التي تنتظر إيابه، وعودته سالماً.

وما أعذب تصوير شاعرنا لحاله وهو يستودع ربَّه محبوبتَه، في غزل عذري رقيق:

أستودع اللَّه فِي بَغْدَاد لي قمرا بالكرخ من فلك الأزرار مطلعه

ثم يصف ساعة الفراق والوداع المر الذي اضطر الشاعر إليه، ويتمنى معه أن يفقد حياته بديلا عن ذلك الوداع الحارق، والذي ليس له فيه خيار يقبل معه رجاء زوجته وطلبها بقاءه، وتشبثها به في رسم بديع لتلك الصورة الوجدانية، فيقول:

ودعتُه وبِودِّي أَن يودعُني صفوُ الْحَيَاةِ وَأَنِّي لَا أودعهُ

وَكم تَشَفَّعَ بِي أَن لَا أفارقه وللضرورات حَالٌ لَا تُشَفِّعُه

وَكم تشبث بِي يَوْم الرحيل ضحى وأدمعي مُسْتَهلَّاتٌ وأدمُعُه

ويستحضر الشاعر ذلكم العذل والعتاب الطبعي من محبوبته، والذي ربما كان وقع حقيقة، أو كان متخيلا استوحاه من واقع محبوبته-كما الظاهر-، وهو لوم وعتاب بشري يقع من زوجة المغترب؛ تلومه على بُعده، مع ارتباطه بزوجته وحبه لها، وهو حق لا يستطيع الاستجابة إليه، وإنما يزيد حرقة على حرقته، وقد أحسن الشاعر عندما جعل هذه الصورة مطلع قصيدته، فقال:

---

(1) سورة الروم: أية 21.

لَا تعذليـــه فَـــإِن العـــذلَ يولِعُـــهُ ... قـد قلـتِ حَقًـا وَلَكِـن لَـيْسَ يسـمَعُهُ
جَاوَزت فِي لومه حدا يُضِرُّ بِهِ ... مـن حَيْـثُ قـدرتِ أَن اللـومَ يَنْفَعُـهُ
فاسـتعملي الرِّفْـقَ فِي تأنيبـه بَـدَلا ... مـن عنفـه فَهُـوَ مُضـنى الْقلـبِ مُوجَعُـهُ

وفي هذه الأبيات رسالة إلى زوجة المغترب، بأن تراعي حال زوجها، وأنه مع اضطراره للغربة لا ينفعه ذلك اللوم، ولا يزيدهما إلا حسرة.

وما أجمل تصوير الشاعر للزوجة بأنها ملك منحه الله له، وإن كان في نظره بأنه فرط بهذه النعمة باغترابه عنها:

أُعْطِيْتُ ملكا فَلم أحسن سياسته ... وكل من لَا يسوسُ الْملكَ يُخْلَعُه
وَمن غَدا لابسا ثوب النَّعيم بِلَا ... شكر عَلَيْهِ فَعَنْهُ اللَّه يَنْزعهُ

ثم يصور الشاعر حاله في غربته وكيف أنه يقطع الأيام بما يسليه وينسيه، ولكن دون جدوى بل الأيام تقطعه، وتنفذ الحسرة إلى قلبه، وإذا سكن الليل، وانقلب كل مُحب إلى حبيبه، يسامره، ويبادله الحديث، ويبث إليه الشكوى، يبقى المغترب وحيداً بعيدا عن زوجته وحبيبته:

إِنِّي لأقطع أيامي وأنفذها ... بحسرة مِنْهُ فِي قلبِي تقطعه
بِمن إِذا هجع النوام أَبَت لَهُ ... بلوعة مِنْهُ ليلى لست أهجعه
لَا يطمئن بجنبي مَضْجَعٌ وَكَذَا ... لَا يطمئن لَهُ مذ بنت مضجعه
مَا كنت أَحسب ريب الدَّهْر يفجعني ... بِهِ وَلَا أَن بِيَ الْأَيَّامُ تفجعه
حَتَّى جرى الْبَينُ فِيمَا بَيْننَا بيدٍ ... عسراءَ تمنعني حظي وتمنعه

ومع كل ذلك الأسى والحزن يظل المؤمن متعلقاً بربه، يلجأ إليه، ويسأله الحفظ لمن خلفه في وطنه حال غربته، فهو الحافظ، العالم بحاجة عبده الضعيف، العاجز:

بِاللَّه يَا منزل الْقصر الَّذِي درست ... آثاره وعفت مذ بنت أَرْبَعه
فِي ذمَّة اللَّه من أَصبَحت منزله ... وجاد غيث عَلَى مغناك يمرعه
من عِنْده لي عهدٌ لَا يضيعه ... كَمَا لَهُ عهد صدق لَا أضيعه

وَمن يُصَدِّعُ قلبِي ذكرُه وَإِذا جرى عَلَى قلبه ذكري يُصَدِّعُه

وفي البيتين السابقين إشادة من الشاعر بالوفاء المتبادل بينه، وبين زوجته؛ فالغربة أبداً لا تسوغ لأحدهما نقض العهد، ولا خيانة الحياة الزوجية.

ثم على المغترب أن يتسلح بالصبر، فهو مفتاح الفرج:

لأصبرن لدهر لَا يمتعني بِهِ كَمَا أَنه بِي لَا يُمَتِّعُه

علـما بِـأَن اصْـطِبَارِي معقـب فرجـا فأضـيق الْأَمـر إِن فَكـرت أوسـعه

ومع ذلكم الحزن وتلك اللوعة فإن الرجاء بالله كبير، وهو قادر أن يجمعه بمحبوبه بعد أن أضعف الفراق جسمه، وأثر على صحته، ثم يستصحب شاعرنا الإيمان بالقدر، والتسليم لقضاء الله إن ارتحل أحد منهما قبل اللقاء.

عَسـى اللَّيَـالِي الَّتِـي أضـنت بفرقتنـا جسـمي سـتجمعني يَوْمًـا وتجمعـه

وَإِن ينـل أحـد منـا منيتـه فَـمَا الَّـذِي فِي قَضَـاء اللَّه يصـنعه

*****

المبحث الثاني: الاغتراب والرزق.

ربما تعددت أسباب الاغتراب عن الوطن والأحباب، ولكن يأتي طلب الرزق الباعث الأكثر للاغتراب، وبذل الأسباب طلبا للرزق أمر مشروع؛ قال سبحانه: {هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولًا فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِنْ رِزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ}[1].

واغتراب ابن زريق كان طلباً للرزق عندما وجد نفسه مضطراً إليه، وقد أفصح عن ذلك في بيانه تعذر قبول تشفع زوجته وطلبها بقاءه، حين قال:

وَكم تَشَفَّعَ بِي أَن لَا أفارقه ... وللضرورات حَالٌ لَا تُشَفِّعُه

ويلوم نفسه، ويأنب حاله-في معرض اعتذاره من محبوبه-؛ حيث كثرت أسفاره، وما أن يرجع من سفر إلا صرخ به داعي طلب الرزق إلى سفر آخر، وكأنه هو الموكل بذرع الأرض، وقياسها، ثم يعبر عنها تزهيدا بها بالمطامع التي تجعله لا ينتهي من طلب مال إلا انتقل إلى آخر، وكم بين هذا وذاك من وداع حارق للقلب:

مَا آب من سفر إِلَّا وأزعجه ... رأي إِلَى سفر بالعزم يجمعه

كَأَنَّمَا هُوَ من حل ومرتحل ... مُوكل بفضاء الأَرْض يذرعه

إِذا الزِّمَاعُ أرَاهُ فِي الرحيل غِنًى ... وَلَو إِلَى السِّنْدِ أضحى وَهُوَ يُزْمِعُهُ

تأبى المطامع إِلَّا أَن تُجَشِّمُهُ ... للرزق كَدًّا وَكم مِمَّن يودعه

ثم يُضيف بيت حكمة نابعاً من إيمان قوي بالله تعالى يذكر به كل مغترب لطلب الرزق، بأن ذلك مجرد سبب، وأن الرازق الله سبحانه، وأن ما قدره سيكون، وكلٌ سيأتيه رزقه الذي كتبه الله له:

وَمَا مجاهدةُ الْإِنْسَان واصلةٌ ... رزقا وَلَا دَعَةُ الْإِنْسَانِ تَقْطَعُهُ

ثم يسترسل في هذه الجزئية المهمة مؤكدا لها، وذاماً للحرص المذموم الذي يوصل صاحبه إلى البغي على نفسه أو على غيره:

وَالله قَسَّمَ بَين الْخلق رزقَهم ... لم يخلقِ اللَّهُ مخلوقا يُضَيِّعُه

(1) سورة الملك: أية 15.

لكِنهمْ ملئوا حرصا فلست ترى مسترزقا وَسوى الفاقات تقنعه
والحرص في الرزقِ والأرزاق قد قسمت بغي أَلا إِن بغي المَرْء يصرعه
والدهر يُعْطي الْفَتى مَا لَيْسَ يَطْلُبهُ يَوْمًا ويطعمه من حَيْثُ يمنعهُ

وهكذا المؤمن يجب أن يكون مراقبا لله تعالى في طلبه للرزق، وأن يتوجه إلى الله تعالى في طلبه، ويعمل بالأسباب المشروعة التي لا بغي فيها.

*****

الخاتمة

وفي ختام هذه الدراسة الموضوعية لقصيدة ابن زريق نسلط الضوء على أبرز نتائج هذه الدراسة، وهي كما يلي:

1- جمال القصيدة وإشادة الأدباء بها.

2- القصيدة على بحر البسيط ومضمونها وجداني، رسم فيها شاعرها صورة المغترب عن زوجته، وأثر ذلك عليه وعلى محبوبته.

3- الاغتراب في الاصطلاح يكون حقيقياً، ومعنوياً.

الاغتراب الحقيقي: هو البعد عن الوطن جسديا وهو ما يمثله كثير من القصائد الأدبية التي يبعثها الشوق والحنين إلى الأوطان، وصورها الشاعر القديم بالوقوف على الأطلال.

والاغتراب المعنوي: هو الشعور بالعزلة، والإحساس بالبعد عن المحيط الذي يعيشه الشاعر اجتماعياً، أو نفسياً، أو دينياً

4- يأتي طلب الرزق الباعث الأكثر للاغتراب.

5- البعد عن الزوجة له آثاره السلبية على النفس والمجتمع؛ لأن المغترب يفقد هذا السكن، والدفء المستقيم مع سنن الله الكونية، ويبقى الفراق غصة في حلق المغترب، وكمدا في قلب زوجته التي تنتظر إيابه، وعودته سالماً

6- في القصيدة رسالة إلى زوجة المغترب، بأن تراعي حال زوجها، وأنه مع اضطراره للغربة لا ينفعه ذلك اللوم، ولا يزيدهما إلا حسرة.

7- الزوجة ملكٌ ونعمة يمنحا الله للرجل، ويجب عليها المحافظة عليها وعدم التفريط بها.

8- الاغتراب لا يسوغ تضييع العهد، وخيانة العشرة بين الزوجين، بل هو مع أسبابه المشروعة داعٍ للوفاء؛ فالرجل إنما يغترب لينفق على أهله ومن تجب عليه نفقته.

والقصيدة ما زالت بحاجة إلى دراسة تحليلية، تظهر فيها الجوانب الإبداعية في الشكل والمضمون، والله الموفق.

وصلى الله وسلم على نبينا محمد

ثبت المصادر والمراجع

١- أصول النقد الأدبي، تأليف: أحمد الشايب، ط8، مكتبة النهضة، 1973م.

٢- إيضاح المكنون ذيل كشف الظنون، تأليف: مصطفى القسطنطيني الرومي، نشر: دار الكتب العلمية، بيروت، 1413هـ.

٣- البدر الطالع بمحاسن من بعد القرن السابع، تأليف: محمد بن علي الشوكاني، نشر: دار المعرفة، بيروت.

٤- تاج العروس من جواهر القاموس، تأليف: المرتضى الزَّبيدي، نشر: دار الهداية.

٥- ثمرات الأوراق في المحاضرات، تأليف: تقي الدين ابن حجة الحموي – مطبوع بهامش المستطرف في كل فن مستظرف، للأبشيهي-، نشر: مكتبة الجمهورية، مصر.

٦- ديوان البارودي، ضبط وتحقيق وشرح علي الجارم، ومحمد شفيق معروف، ط عام1998م، نشر دار العودة بيروت.

٧- شعراء القصيدة الواحدة، تأليف: نعمان الكنعاني، نشر مكتبة سلام السومري، 1966م.

٨- صحيح مسلم «الجامع الصحيح»، للإمام مسلم بن الحجاج، الطبعة التركية تصوير دار طوق النجاة، الطبعة الأولى 1433هـ

٩- طبقات الشافعية الكبرى، تأليف: تاج الدين السبكي، تحقيق: د. محمود الطحان، ود. عبد الفتاح الحلو، نشر: دار هجر، مصر، ط 2، 1413ه.

١٠- ظاهرة الاغتراب في شعر مخضرمي الجاهلية والإسلام" لأ. آمال عبد المنعم الحراسيس

١١- غريب الحديث، تأليف: أبي عبيد القاسم بن سلام الهروي، تحقيق: د. محمد عبد المعيد خان، نشر: مطبعة دائرة المعارف العثمانية، بحيدر آباد الدكن، ط 1، 1384هـ.

١٢- كنوز الذهب في تاريخ حلب، تأليف: أحمد بن إبراهيم سبط ابن العجمي، نشر: دار القلم، حلب، ط1، 1417هـ.

١٣- لامية البارودي في الغربة والحنين- دراسة بلاغية تحليلة" لـ ياسر الطريقي، مجلة اللغة العربية وآدابها، جامعة الأزهر، أسيوط.

١٤- لسان العرب، تأليف: محمد بن مكرم ابن منظور، تحقيق: عبد الله الكبير، وغيره، نشر: دار المعارف، القاهرة.

١٥- المستفاد من ذيل تاريخ بغداد، انتقاء ابن الدمياطي، مطبوع مع تاريخ الخطيب وذيوله، تحقيق: تدمري، الطبعة العلمية.

١٦- مصارع العشاق، تأليف: جعفر بن أحمد السراج البغدادي، نشر: دار صادر، بيروت.

١٧- معجم المؤلفين، تأليف: عمر بن رضا كحالة، نشر: دار إحياء التراث، بيروت.

١٨- معجم مقاييس اللغة، تأليف: أحمد بن فارس، تحقيق: عبد السلام هارون، نشر: دار الفكر، ط 1399هـ.

١٩- موسيقى الشعر العربي بين الثبات والتطور" لـ د. صابر عبد الدايم، ط3، مكتبة الخانجي، 1413هـ.

٢٠- واحدة ابن زريق البغدادي دراسة في البناء الشكلي واللغة الشعرية، تأليف: مؤيد جاسم وآخرون، مجلة آل البيت العدد العاشر .

٢١- الوافي بالوفيات" تأليف: صلاح الدين الصفدي، تحقيق: أحمد الأناؤوط، نشر: دار إحياء التراث، بيروت، 1420هـ

٢٢- يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر، تأليف: عبد الملل بن محمد أبو منصور الثعالبي، تحقيق: د. مفيد قمحية، نشر: دار الكتب العلمية، ط1، 1403هـ.

فهرس الموضوعات

الموضوع	رقم الصفحة
المقدمة.....	3
التمهيد.....	5
التعريف بالشاعر.....	5
مكانة القصيدة	7
نص القصيدة.....	8
مفهوم الاغتراب	11
المبحث الأول: الاغتراب والزوجة.....	13
المبحث الثاني: الاغتراب والرزق	16
الخاتمة.....	18
ثبت المصادر والمراجع.....	19
فهرس الموضوعات.....	21